من مفكرة

جاذبية صدقى

الـــزار

بريشة : يوسف فرنسس

سؤال فى بالى يشغل قلبى ، ويلح على عقلى — سؤال عنيد لحوح لا ينفك يضايقنى .

— لم تركبنا .. نحن الشرقيات .. العفاريت والشياطين دون بنات جنسنا الغربيات ؟ لم ؟

كنت وأنا بعد طفلة ، أعض لسانى مستهولة اذا قفز اليه سؤال كهذا .. واخرس عقلى .. وأدور بعينى حولى فى خوف ورهبة .. وأنا أتمتم :

— « بسم الله الرحمن الرحيم — دستور يا اسيادى ! »

... دون أن أدرى بالضبط من هم اسيادى » هؤلاء الذين أطلب دستورهم فقط فى خيالى لهم صورة طالما وقف لها شعر رأسى ! صورة رسمتها لى الزنجيات اللاتى دخلن بيتنا أيام زمان وخرجن — طاهية كانت الواحدة منهن .. أوحاضنة .. او خادمة !

أما اليوم ، وقد عركت الحياة وعركتنى بقد نهيت حقا من هم المقصودون بالرجاء .. والابتهال .. والتذلل ! انهم بلاشك الاعصاب ! سادة الجسم .. المسيطرون عليه .. أصحاب الامر والنهى فى أخلاقنا .. فى انفعالاتنا .. فى تصرفاتنا ! وتبعا لذلك ، فى حياتنا ذاتها سواء أكانت ناجحة أو فاشلة — والعياذ بالله

لقد كانت المرأة العربية عامة تتعلم دائما أول ما تتعلم : الكبت كبت عواطفها .. وشعورها .. ورغباتها — حتى انفعالاتها من غضب .. وعدم رضا .. وشقاء ! فلا تزال من يوم مولدها الى يوم مماتها تسمع كلمة : « عيب ! عيب ! » و « الصبر ! الصبر ! » — ترن فى اذنيها .. وتجلجل فى خلايا دماغها .. وتسرى مع دمها فى أدق عروقها .. وترسب متغلغلة فى أعماق أعماقها ! وعندما تشب عن الطوق وتدخل معترك الحياة ويكف من حولها عن قولهم لها ، يكون عقلها قد تشرب بها وتعودها فينطلق يرددها كالببغاء دون أن يجاول اسعاف المسكينة بتفكير سليم منطقى من عنده هو ! فاذا صارت حياتها الزوجية .. مثلا .. جحيما ، صاح بها كما كانت تصيح بها من قبله جدة أمها :

— « عيب .. يابنت ! »

ثم يضيف — كجدة أمها — أعنى عقلها يقول لها :

— « أنت يابنت محتاجة الى بيت ورعاية رجل مثله ينفق عليك — خلاص ! قال على راى المثل : فى قنا رجل ! عيب جدا اذن الخناق والطلاق ! تحملى واسكتى ! »

فتسكت ، تبتلع غصتها وتدس جمرة بين أعصابها .

وكان اذا جار عليها الزمن وانتقرت بعد عز ، توهجت أمام عينيها كلمة واحدة — كلمة رضعتها .. وشبت على رنينها .. وترعرعت على سماعها ! كلمة مخدرة هى « الصبر ، الصبر » ! فلا تهب تبحث عن عمل تكتسب منه وتخرج من مازقها ، لا لانها غير مهيأة علميا فحسب ، ولكن لانهم انشأوها وربوها نفسيا كى تكون تابعا .. حملا .. عالة .. فاذا ذهب العائل ، غرقت يهبط مستواها الاجتماعى .. ويمضها الذل .. وتعزى أعصابها الحاجة .. وتعيش على الكفاف .. ويتصدع قلبها أسى وهى « صابرة وساكتة ! » — مستسلمة لعفاريت الكبت والضيق والحيرة لتركبها «وتعفرتها» فتشعر بثقل فى تنفسها .. وبصداع قاتل .. وبزيغ فى عينيها .. وبطرقات تدوم على أوصالها ومفاصلها .. وينبض جسمها كله بالالم ، حيث لا مرض هناك وعندما تهبط الظلمة .. وتهدأ الدنيا .. ويسكن البيت وقد هجع الجميع .. وتواجه هى وحدها مشاكلها وجها لوجه .. والليل حولها حالك كأفكارها ، تلقى قلبها يدق وأذنيها تصغران .. ويطير النوم من عينيها !

وانسانة هذا حالها وتلك نفسيتها تتخيل أصواتا وخيالات واشباحا . واذا جدث وحط عليها نعاس ، كان نعاسا خاطفا .. متقطعا .. متوترا .. يعذبها بكابوس مرعب مخيف !

فتنصحها بنت الحلال من جاراتها أو قريباتها بعمل زار ..

وفى الزار تنفس عن كربها بالقفز واللطم وجذب شعرها ! ثم انها فى الزار تسلط عليها الاضواء .. وتصبح محط الانظار .. ومحور الاهتمام .. والشفقة .. والحنان !

معظم نساء الجيل الماضى من هؤلاء ولايزلن يعشن بيننا بعقلية زمان . ومن رواد الزار اليوم المتشبثات به .

وقد أرهقنى فضولى منذ أسبوع — الزار ؟ ما هو ؟ كيف يكون ؟ ماذا يحدث فيه ؟

حفل زار كليالى ألف ليلة وليلة — حفل أقامته «كودية» سودانية يقال أنها عريقة فى المهنة اسمها «أم كريمة» . تعيش فى حى « المغربلين » فى شارع «الدالى حسين» .

ذهلت ونحن نهل على الحى . ما هذا كله ؟ زفاف؟ السيارات الفارهة مرصوصة على باب بيتها ملكها ، دايل عميلاتها الثريات التافهات التفكير . ثم ان الاعلام الحمراء والخضراء والصفراء ترفرف فوق اعمدة على جانبى شارع «الدالى حسين» المحظوظ هذا !

وفى سرادق فخم مفروش بالسجاجيد .. وعلى كراسى نظيفة أنيقة .. وحول صوانى مستديرة من صوانى عشاء أيام زمان النحاسية المصقولة ، جلسنا . صوانى حفلت بديكة رومية .. وخراف مشتوية نصفين .. ودجاج .. وحمام !

وبعد أن أكلنا .. نحن الضيوف .. وحمدنا ربنا .. ودفعنا «للست الشيخة » مافيه النصيب كنقوط ، تقهقرنا الى مؤخرة الصورة ، نتزاحم فوق كنبات بلدية رصوها جنب الحائط .

أما المشتركات بعفاريتهن فى الحفل ، فكانت كل منهن ترتدى ثيابا فنهانة زاهية من أثمن نسيج وأرقه ! فما يعجبها نقر الطبول والدفوف حتى تقوم متمايلة فى دلال من بين زمرتها . وقد لاحظت أنها لاتكون غائبة عن رشدها — وان ادعت ذلك — بل هى تختلس نظرات .. وتكثر التعليقات .. وتكثر الاشارات — أشارت بها .. وعليها .. وهى فرحة بل نشوانة ! تشعر انها عروس حقا بل انهم فعلا يدعونها « عروس الليلة » ! فتحيا أعز ساعة فى عمرها ، مرة ثانية ! وتسحب وشاحا حريرا ابيض على شعرها ، تخفى وجهها ، وتروح ترقص متمايلة على الجانبين .. وتبدع .. وتفتن فى الخطو والثنى .. و « الكودية » تحمحم حولها طوال الوقت ضاربة بالدف ذى الصنجات وتمطرها بسيل من عبارات الترحاب والثناء من : « اسم الله ! » .. الى « الحافظ الله لشبابك ! » .. الى « يازين جمالك مع دلالك ! » .

وتلك عبارات حلوة ، أحب نحن النساء سماعها ، تفرح قلوبنا وتشرح صدورنا ، نستشعر حلاوتها فى حلوقنا لفترة طويلة كأنها ملبسة نمصها على الهل ! ثم هى هى كلمات تدفع فى دمائنا حياة وفوحة بأنفسنا .. وثقة بقيمتنا .. بحلاوتنا .. بشبابنا .. ودلالنا !

و « الكودية » هذه .. فى رأيى .. عالمة نفسانية بدائية مثلها مثل طبيب القبيلة فى الادغال !

ان « الكودية » مخلوقة شديدة الذكاء تعطى كل عميلة من عميلاتها ما تحتاج اليه : عطف .. اهتمام .. رعاية .. تدليل — أو حتى تنصت اليها فحسب ، وهى تسكب بين يديها الامها وشكواها وما يضنيها وما يضنها ! واليوم .. فى العالم كله .. يعالج المجانين بأحدث وسيلة وهى : المعاملة التى يفتقرون اليها .. وبالموسيقى .. وبالاعمال اليدوية الفنية من رسم وتطريز ، وبالاعمال الصناعية الخفيفة من نجارة وحدادة ولو اننى كنت طبيبة نفسانية وجاءتنى احدى تلك النساء لاستشارتى ، لنصحتها بالاشتراك فى نادٍ أو معهد للتمثيل ! اى والله — التمثيل ! فان واقع المرء ليس دائما طيبا دائما ، فيخفف اقتباس شخصيات اخرى من جدة توتر أعصابنا

و « الزار » كما رأيته ما هو الا اقتباس لشخصيات اخرى ، سواء أكانت من الجن أم الانس .. فهـــذا هو « القسيس » .. وذاك « الجن الاحمر » .. وهذا هو « شيخ العرب » .. وتلك هى « ست سفية » — ترتدى المصابة ثياب تلك الشخصيات تباعا .. وتقلد حركاتها ..وترتجل رقصها .. وتتمايل تمايلها ! فالزار تطعا هو هروب من الواقع — وان للحظات ! الواقع القاسى الذى لا مفر منه ، كأن المرء فراشة وهو عنكبوت داهية تلف خيوطها وتلفها حوله باحكام .. باصرار .. بتشبث .. بحنكة .. وبخبث ! فاذا أمكن المرء .. بطريقة ما .. افلات من ضغط هذه الخيوط التى تقيده اليها تشده اليها .. تشله لا حول له ولا قوة ، لم يتردد . بل وجد فى ذلك متنفسا يحميه من الذوى فى هاوية الجنون .

وقد شاهدت فاصلا كوميديا لا يعاى عليه — تلك الليلة من « رجب » التى تقام فيها حفلات الزار تباعا .. وكل ليلة .. تبدل حول شهر رمضان الذى تسجن فيه العفاريت والجان !

شاهدت سيدة بيضاء — ضخمة .. طويلة .. عريضة ، كلها لحم وشحم تفخر بهما جدا ! قامت من جلستها على « الشلتة » متثاقلة عندما نقرت «المعلمة» الزنجية الاريبة على الطبول والدفوف هى ومساعداتها نقرا عفريتيا وافق مزاجها ! قامت ، تتناثر حولها تحايا زميلاتها :

— « اسم الله ! » .. صلاة النبى أحسن ! .. يا أرض احفظى ما عليك .

.. والسمينة تتمايل ، تشوى بجمالها الضخم ! لكنها للعجب .. على وقع الطبول والدفوف .. أخذت تتقافز خفيفة رشيقة وقد بسطت طولها لاخره ! فذكرتنى بانثى الفيل الاليفة فى « السيرك » وهى تهز رأسها وتتمايل مع الموسيقى .. وقد همت واقفة على قائمتيها الخلفيتين .. ورفعت خرطومها للسقف .. وراحت تنقل قدما ثم قدما .. والهتافات حولها تشجعها !

وفجأة — ودائما تقع الاحداث فجأة فى تلك الاماكن فيما يبدو : — لاننا ماكدنا ننسجم من الفرحة على المرأة الفيل المعجبة بشحمها ولحمها الكثير ، حتى صمتت الطبول وسكتت الدفوف ، وارتفعت نغمات ناى على وقع هنجات نحاسية مجلجلة ترقص العابد ! ودار همس سريع مضطرب :

— « الفندورة ! الفندورة قادمة ! »

فلما سألنا عمن تكون تلك «الفندورة» قالوا لنا : — عفريتة من بنات الجان فى عز شبابها .. رشيقة .. فتانة .. ذات طراوة .. وطلاوة .. وحلاوة .. وتحب جدا الدلال !

بالذمة ، من منا لا تحب هذا الوصف ؟

لقد هبت لمقدم فاتنة العفاريت جميع الموجودات .. عجائز وشابات وصبايا .. وقد تزين بحلى ذهبية نفيسة .. من خلخال وكردان .. وأساور عدة قد تبلغ العشرين أو الاربعين (مسكين الزوج !) ودلايات فى شعورهن .. وحول نحورهن .. وحول خصورهن ! وأعلاك كل منهن ردفيها بشال حريرى أحمر او أخضر أو أصفر واندفعت فى المعمعة ! اندفعت الى وسط الحلقة ترتص رقصا بلديا أصيلا وهى « تتغندر » ..وتتثنى .. وتتعاجب ..وتغمز بعين .. وتلمز بحاجب .. وتسدل شعرها على وجهها .. أو تعقص ضفيرتيها كالعمامة فى دل حول رأسها كل منهن انقلبت الى لعوب لاهية ! هذا كله و « المعلمة » السودانية تغنى لهن كلاما نظمته هى ، وان ترنمت على وقع اغنية فريد الاطرش : ياجميل ، ياجميل — كلام يشرح الصدر الحزين المكلوم الضيق بمشاكل الحياة ! كلام تتمنى الواحدة منهن أن تسمعه من زوج مهمل غير مبال ، أو من حبيب غادر ! فتجىء المعلمة » لم ناب ازرق المتمتعة فى نفسية النساء وتضع يدها على الجرح الخفى ، وتمسح عليه بكلام كأنه البلسم

وبعد « دور الفندورة » ، جاء دور عفريتة طفلة — تصوروا ! طفلة من بنات الشياطين تحتل أجسام السيدات — لم لا ؟ معقول جدا — فتحيلهن فى تصرفاتهن الى بنات صغيرات ! هنا أتوقف لحظة لاسجل اعجابى الشديد بذكاء تلك المرأة الداهية التى اسمها : « كودية زار » خسارة ذكاؤها فى هذا الاحتيال ! انها لم تدرس ولا هى تلقت دروسا فى علم النفس . لكنها بديهتها .. بغريزتها .. بحاستها السادسة — أو لعلها العاشرة — تلمست لهفة كثير من البالغين الى عهد الطفولة الهانىء السعيد الخالى من المسئوليات .. فاخترعت لهن عفريتة طفلة بنت سبع سنوات ، تتقافز بمرح لاه خالية البال . فتصوروا — والنبى حاولوا أن تتصوروا امرأة بنت خمسين أو خمسة وخمسين أو خمسة وستين وقد أسدلت شعرها المصبوغ بالحناء على كتفيها .. وعقصت حول رأسها شريطا أحمر أو أصفر أو أزرق .. وراحت تداعب دمية أمسكت بها . فتحتضنها تارة .. وتقبلها تارة .. ثم تلقى بها فى الهواء وتتلقفها ثانية ، تارة أخرى ! أو بدلا من الدمية تطهو بالكرة .. أو تقذف الموجودين بالحلوى

اعلانات مبوبة

ورق حائط

■ فرصة ذهبية ■

ورق حائط فاخر بأسعار لا مثيل

اراضى للبناء

★ أرض ممتازة بمدينة الاندلس بالهرم ٢٣٦٠ ناصية على ميدان

تاكسيات

★ نقل دودج ١٩٧٥ بنزين شاسيه بالكابينة ١٠ طن تليفون ٨٢٤٣٨٧

★ للبيع تاكسى مورات مو ٧٥ لاعلى سعر ت ٩٨٨٣٤٥

موتوسيكلات

★ ٥٠٤ جى ال ٧٣ لاعلى سعر ت ٨٠٦٧٥٢ بعد ١٠ صباحا

★ ٥٠٤ ج.ل استيشن مو ٧٤ ممتازة وردت حديثا جمرك أجرة ت ٨٤٧٤٣٠

سيارات هوندا

موتوسيكل

سيارات نادرة